(١)

صدفة مدبرة

بقلم/ رضوى صلاح مهران

كان المستشار جمال حسين على وشك تناول قهوته الصباحية حينما سمع صوتًا خلفه يقول:

- مساء الخير يا سيادة المستشار.

لم يكن الصوت غريبًا عليه ولكنه لم يستطع تبين هوية صاحبه، فوضع فنجان القهوة على المنضدة البلاستيكية أمامه والتفت خلفه ليجد شابًا أشقر في الخامسة والثلاثين يرتدي بدلة سوداء كاملة. مد الشاب يده إليه مصافحًا وعلى وجهه ابتسامة ودود: أنا رفعت العارف المحامي. سبق أن تقابلنا في قضية شريف العامري.

أخذ المستشار يتفرس في وجهه للحظة محاولًا التذكر إلى أن رفع حاجبيه علامة على نجاحه في ذلك، فصافح الرجل في حرارة قائلًا: أهلًا وسهلًا يا متر، إعذرني، أنت تعرف كم من وجوه تمر علينا في عملنا.

سحب الشاب يده مستكملًا حديثه بذات النبرة الودود المُوقِرة: مفهوم طبعًا يافندم، كان الله في العون.

- وفي عونك أيضًا، فقد أصبحت محاميًا ذائع الصيت من بعد القضايا الأخيرة التي ربحتها ولابد أن مكتبك الصغير قد كبر وأعبائك ازدادت.

- بالفعل يا سيادة المستشار. لقد تريضت قليلًا ولكني ذاهب إلى المكتب. لا يوجد راحة حتى في يوم الإجازة. ماذا نفعل؟ نحاول اللحاق بكل ما أوتينا من قوة. عسى أن نكون سببًا في رفع الظلم عن بريء.

عند هذه النقطة توقف المستشار قليلًا وابتسامة باهتة ترتسم على شفتيه ثم نظر للأسفل حيث فنجان القهوة وأمسك بيده مفكرًا للحظة ثم أردف:

- هل أنت واثق من براءة جميع موكليك في القضايا الأخيرة، أقصد قضايا المرضى النفسيين؟

ضاقت عينا المحامي الشاب عندئذ وبدأت ابتسامته تنكمش نوعًا ما ونزل رأسه إلى الأسفل قليلًا وكأنه يفكر في إجابة مباغتة لهذا السؤال المباغت ثم رفع رأسه في لحظتها مجيبًا وعيناه تلتمع بنظرة تحدي لا مجال لها في وسط هذا الحديث الذي يفترض أن يكون وديًا: بلى، واثق.

"الآن تذكرتك حقًا"- حدث المستشار ذاته بذلك- "تلك النظرة المتحدية الواثقة التي لا ترتسم سوى على وجه ثعلب. في البداية كنت متعاطفًا معك. قلت مريض والذنب على من أقنعه أن مرضه لا يمثل عائقًا أمام عمله في مهنة حساسة كالمحاماة ولكنك أقنعتني أني كنت على خطأ حينما سألتك: ألا ترى أن تشخيصك بالفصام يمنعك من الامتهان بمثل هذه المهنة الخطيرة التي تستوجب عقلًا واعيًا وتركيزًا شديدًا وحذرًا متواصلًا، لا عقل تشغله التخيلات والأحداث الوهمية والتي يمكن أن تضر بقضيته كما حدث بالفعل في تلك القضية؟ وعندئذ أجبتني وتلك النظرة المتحدية تبرق من عينيك: أبدًا. وقتها لم أرى وجه ثعلب بل وجه أسد شجاع. شعرت بأنك قد تكون على حق وأن أحدهم يستغل مرضك لإلقاء اتهام باطل عليك بينما أنت تناضل لإثبات براءتك وأنه من الممكن أن تحقق حلمك وتصير محامي رغم مرضك. احترمت ذلك فيك بل وأعجبت بإصرارك وعدم استسلامك، خاصة بعدما فزت بالمعركة واستطعت إثبات براءتك. ولكن بعدها ..

قاطع المحامي الشاب حديثه الذاتي: ما الذي تشك به يا سيادة المستشار؟

- أليس غريبا أن كل المرضى النفسيين اللذين دافعت عنهم قد تم إلقاء التهم عليهم من قبل آخرين استغلالًا لمرضهم النفسي مثلما حدث معك تمامًا، أليست تلك مصادفة غريبة؟

- ما الغريب. إنه أمر متوقع الحدوث في مجتمع مثل هذا لا يزال ينظر إلى المريض النفسي باعتباره ليس إنسان من حقه أن يعيش حياته ويحصل على كافة حقوقه. إنه نكرة في نظر الجميع. حتى سيادتك عندما تحدثت عنهم قلت المرضى النفسيين، لم يعلق في بالك أي شيء عنهم سوى أنهم مرضى نفسيين. فما المشكلة حينئذ أن نرمي عليه اتهامًا وندمر

iCulture
Empowering creative minds

حياته؟ هل لهذا حياة أصلًا؟ ومن يوخزه ضميره قليلًا يرضيه بقوله أن المريض النفسي لا يُحاسَب وجل ما سيحدث له هو أن يُودَع مستشفى الأمراض العقلية حيث يجب أن يكون.

- ربما هذه عقلية البعض. وأنا لم أشير إليهم بصفة المرض النفسي تحقيرًا وازدراءًا، لأني لا أفكر كذلك، بل لأن هذا الأمر إحدى الأسس التي انبنت عليها قضاياهم لا أكثر، ومن الطبيعي أن أسمي الأمور بمسمياتها. الأمر أنه مثلما يقع المريض النفسي ضحية، فقد يكون أيضًا مذنبًا بالقدر نفسه. وجل ما يقلقني أن شعورك بالمظلومية جراء قضيتك القديمة والمضايقات التي تتعرض لها من ضيقي الأفق اللذين تحدثت عنهم يدفعك لتبرئة من هم في مثل موقفك حتى لو كان هناك ما يدعو للشك بهم.

وضع المحامي الشاب يديه على المنضدة واقترب بجسده أكثر وردد في تحد مجددًا: هل تتحدث سيادتك عن قضية معينة أم هذا تحذير بوجه عام من أحد حراس العدالة خشيةً عليها؟

وضع المستشار يديه على المنضدة واقترب بجسده بدوره حتى صارت المسافة بين العينين المتقدتين لكلًا منهما أقصر مفسحة المجال للشرارات المنطلقة منهما كي تتشابك متصارعة: الشاب الذي اتهم بقتل عائلته ولم يكن هناك من مشتبه آخر سواه. هل كان بريئًا حقًا؟

رد المحامي الشاب في آلية: أجل، فلا توجد أدلة على أنه القاتل. لا تسجيلات كاميرات المراقبة أثبتت أنه كان قريب من المنزل وقت وقوع الجريمة ولا يوجد بصماته على سلاح الجريمة ولا حجم قدمه يناسب حجم قدم القاتل الذي وجد أثر حذاءه وتم التحقيق معه مطولًا ولم تتناقض أقواله يومًا.

ابتسم المستشار وحدق بعيني المحامي جيدًا وهو يقول: هل من الممكن مثلًا لأنه في المقام الثاني من الذكاء لأن يحسب حساب كل ذلك. ولأنه في المقام الأول معتل نفسيًا ليس لديه مشاعر، فلن يخاف أو يضطرب وبالتالي لن يخطئ في أي شيء مهما طال التحقيق معه بمختلف الأساليب.

تغيرت ملامح المحامي الشاب عندئذ واختفت ابتسامته التي ظل محافظًا عليها وصارت نظراته أكثر حدة ولكنه سرعان ما استعاد وجهه السابق وقال للمستشار في هدوء: إذا سمحت لي سيادتك، من أين حكمت عليه بأنه مختل نفسي يقتل بدم بارد، إنه يعاني الاكتئاب وحسب. وهذا أمر منتشر بين الشباب في هذه السن..

قاطعه المستشار: أنا أعرفه.

نظر له المحامي في عدم فهم. فأكمل: لقد كانوا جيراني في السابق. وأنا أعرف هذا الولد مذ كان صغيرًا. لم يكن طبيعيًا يومًا، بل كان عنيفًا دومًا يهوى إيذاء الأطفال الآخرين والحيوانات، حتى أنه أغرق قطة ابنتي في نافورة الحديقة وتركنا نبحث عنها ولم ينبس ببنت شفة بل كان يبحث معنا في هدوء وبرود وكأنه لم يفعل شيئًا ولم يظهر عليه أي تغير وبعد ذلك كاد أن يقتل الولد الذي وشى به ولهذا تركوا المكان وذهبوا.

تراجع المحامي بجسده للوراء وهو يقول في عتاب: يا سيادة المستشار، تلك تصرفات أطفال، هل يحكم على شخص أنه قاتل من أفعاله الطفولية.

- ليست تصرفات طفولية. تقارير اللجنة الطبية التي وقعت الكشف عليه أشارت في تقاريرها بأن ردات فعله في موقف مثل قتل عائلته جميعًا كان هادئا بشكل غريب.

- لقد دخل في صدمة.

- وإن يكن، شهادات الشهود تؤكد مدى غرابة وعنف هذا الشاب.

- بعض الشهود فقط وكلهم من أقارب الأب اللذين يريدون إلقاء التهمة عليه للتخلص منه والحصول على ثروة العائلة التي لن يكون بإمكانهم أن ينالوا قرشًا واحدًا منها إلا بعد التخلص منه باعتباره الوريث الوحيد لها. ثم ماذا يعني غرابة؟ لا يستندون إلى شيء في ذلك سوى أنه كان محبًا للانعزال و كانت ردات فعله حادة قليلًا معهم عندما يضغطون عليه للخروج من عزلته أو يستفزونه ولم يصب يومًا واحدًا منهم. هل الانعزال أصبح سابقة جنائية تستوجب الشك.

iCulture
Empowering creative minds

- لو اعتبرنا كلامك ذلك صحيحًا، فالأمر ينطبق عليه أيضًا. إن كان لهم مصلحة في موت العائلة، فله هو مصلحة أكبر خاصة أنه وفقًا لشهادات الشهود فهو لم يكن على وفاق مع عائلته. والشهود هؤلاء من الجيران والمحيطين اللذين لا شأن لهم بالميراث ولا تجمعهم أي صلة بأقارب الضحايا.

- إذن فلنعد إلى البداية، هو له مصلحة وهم لهم مصلحة ولكن ما من أدلة ضده، إذن ..؟ اسمح لي أنت تنظر للأمر بناءًا على حكم شخصي يستند إلى ذكريات طفولية وهذا، إن لم تسيء فهمي، أمرًا لا يليق برجل قانون حكيم مثلك.

- ابتسم المستشار قائلًا وهو يضغط على كلماته كي تبلغ الأثر الذي يريده: ولما لا يليق. مرحلة الطفولة مثل مرآة الساحر لا تتنبأ فقط بمستقبل الشخص بل تريك ما سيكون عليه بالفعل ولكن مع الأسف نحن لا نريد تصديق ما نخشاه. أنت مثلًا لو صدق والداك العلامات التي تدل على إصابتك بالفصام قبل أن تشعل النار في الكوخ الصغير في قريتكم زاعمًا بأن هناك من كان يتعقبك وأراد قتلك، فما كنت ستعرض نفسك لخطر كهذا، أليس كذلك؟

لم يتفوه المحامي بكلمة، بل ظل ينظر إلى المستشار وهو يلعب بلسانه داخل فمه ثم قرر الكلام أخيرًا، فوضع يده على المنضدة ثانية وقرب وجهه من المستشار، ثم قال بصوت هامس يشبه الفحيح: إني أعطيك الحق تمامًا في هذا. لقد اقتنعت. ولكن هذا يجعلني أتساءل إذا ما عدنا لطفولتك يا سيادة المستشار، ماذا سنجد؟

عندئذ امتقع وجه المستشار وتبدلت ملامح وجهه. فنهض المحامي الشاب مبتسمًا في ظفر ومد يدًا لم تجد من يبادلها التحية قائلًا: لا تتصور مدى سعادتي برؤيتك اليوم يا سيدي. أتمنى أن نتقابل مجددًا ولكن ليس هنا. بالتأكيد ليس هنا.

قال ذلك وانصرف تاركًا المستشار يمضي في رحلة داخل عقله وفي زمن يبعد ثلاثين عامًا من الآن.

iCulture
Empowering creative minds